القطـــــر العربي السـوري

اتحـــــاد شبيبـــة الثـــورة

قيـــــادة الاتحـــــــاد

التاريخ / / / ١٩٨

تجـــــارب شخصية في الفـــن التشكيلي

محمود حمـــــــاد

ارجو ان اشير في مستهل هذا الحديث انني في كل مرة طلب الي الكلام عن تجربتي الفنية كنت اجد نفسي في مأزق اخشى فيه على سامعي من الملل واخشى على نفسي من التمسك برأي اظنه اليوم حكمة الحكم وارجع عنه بعد فترة من الزمن الى راي يشجبه ،وذلك بفعل القلق المستمر الذي يراود من جعل مهنه الفن شاغلة وسبب حياته ،ومن هنا اتى ذلك التنوع او ما يدعي بالمراحل التي مرت بها تجربتي/ ان استقرت في الفترة الاخيرة على لون عرفت به ،ولا يمكنني الجزم بانني ساستمر في هذا الاتجاه حتى النهاية .

لقد اعتاد المشتغلون بالفن ترك الحديث عن اعمالهم للناقد والمؤرخ يختلفان تارة ويتفقان اخرى ،بينما يتفرغ الفنان الى عمله وانتاجه .الا انه بعد ان شرفني اتحاد شبيبة الثورة بدعوته للحديث في هذه المناسبة ،لا يسعني الا ان استجيب شاكرا .

قد يكون من المفيد العودة الى عام / ١٩٤٠ / عندما كنت اعمل مع جماعة (مرسم قيرونيز) التي كانت تضم عددا من الشباب المتحمس . وكنا في تلك الفترة نتخبط في متاهات التجربة ،ونستمد المعرفة من الامثلة القليلة التي كانت تتوفر لنا في الكتب والمجلات الفنية ،والندرة من المعارض التي كانت تصل الى دمشق ،من اهمها معرض الفنانين البولونيين الذي اقيم في فندق الشرق عام / ١٩٤٤ / والذي كان يشرف عليه الفنان جوزف جاريما الذي توطدت بيني وبينه اواصر صداقة قصيرة الامد ،ولكنها مفيدة في الكشف عن تجارب الفن الحديث ،وعن مبادئ تأليف اللوحة ،وتوازن الاشكال والكتل فيها ومعاني التألف والتضاد ،والتكامل في الالوان ،كما كنت استأنس بارراء الفنانيين الذين عادوا من دراستهم في الخارج امثال محمود جلال ومبشيل كرشة وصلاح الناشف ،ونصير شورى .

كنت استوحي في عملي المواضيع التقليدية مثل الوجوه والطبيعة والاحياء القديمة وكنت اتردد بين مفهوم سطحي للانطباعة ومحاكاة ساذجة للواقع . بدون ان يكون لدي مفاهيم واضحة في الاسلوب والاتجاه ،منطلقا من عفويتي ،ومن ذلك القدر الضئيل من الذخيرة الفكرية والمعلومات التقنية التي توفرت لي في ذلك الوقت .

من المعروف ان الحركة الفنية في القطر خلال سني الحرب العالمية الثانية وما بعدها ،كانت في بداياتها وكان النشاط الفني معتمدا على المبادهات الشخصية ،كما اتخذ شكلا جماعيا في الاندية والجمعيات .

من اولى تلك الجمعيات (دار الموسيقى الوطنية) في شارع الصالحية بدمشق وكان لها فرع للفن التشكيلي ،نشط سنوات قليلة ثم قام مكانه في البناء ذاته (نادي دمشق الاهلي الرياضي) وكان له فرع مشابه للرسم والتصوير ،وقد تمكن هذا الفرع من اقامة معرض جماعي كبير في معهد الحقوق ،وشارك فيه فنانون من غير السوريين ،

وقد تحول الشباب الذين عملوا في هاتين الجمعيتين الى تجمع عفوي دعوه (مرسم فيرونيز) في بناء يقع (بشارع العاني) . ثم انتظموا ،في المرسم ذاته تحت اسم (الجمعية العربية للفنون الجميلة) وسعوا لتاسيس مركز تعليمي منبثق عن الجمعية . وكان اهم ما تصدوا له ،معرض كبير في معهد الحرية (اللاييك) شارك فيه فنانون من انحاء القطر .

قام فنانوا هذا التجمع ،عقب هجوم الجنود الفرنسيين على البرلمان وحرقه وقتل حاميته من رجال الشرطة بانجاز لوحات تمثل احداث تلك الواقعة الاليمة .

كما قاموا في اول ذكرى للجلاء بتصوير لوحات رمزية كبيرة تمثل اعتداءات المستعمر على الشعب ،نشرت في مسيرات وطنية نظمت في ذلك الحين .

وقد تركت هذه التجمعات وما تلاها من نواد كالجمعية السورية للفنون وكان مركزها في شارع (ابي رمانة) والجمعية السورية للرسم والنحت في شارع (الشعلان) اثرا لا يستهان به في حركتنا الحاضرة . ففيها كانت تتفاعل افكار الشباب وتعقد ندوات عفوية يشترك فيها مثقفون وادباء يتحاورون ويتبادلون الرأي . وكانت كل لوحة جديدة تثير بين المجتمعين نقاشا مفيداً او بناء .

ولم يكن في ذلك الوقت ما نطمح اليه من مكافآت مادية على جهودنا ،مكتفين بذلك الحافز الداخلي الذي كان يدفعنا للعمل والتعلم .

ولما كان عملنا مرتبطا على الاغلب بتصوير مظاهر الواقع حولنا ،فقد حصل كل منا على ترخيص من دوائر الامن ،يسمح لنا بالوقوف في المنطقة التي نختارها . والعمل بحرية دون مضايقة من احد .

اذا تحدثت بصيغة الجمع فذلك ان تجربة الجيل الذي انتمي اليه تجربة مشتركة . فالمعاناة كانت متشابهة ،وكذلك الصعوبات الفكرية والمادية .

كنا نجد صعوبة في توفير المواد والالوان اللازمة لعملنا ،فنلجأ الى الاتربة المستعملة في طلاء الجدران نسحقها بزيت الكتان ،ونعبئها بأنابيب قديمة لمعجون الاسنان بعد تنظيفها ،وكنا نستعمل الخشب المعاكس لانجاز اللوحات الصغيرة فنبتاع صناديق الشاي الفارغة وشهيٌ قطعها التهيئة اللازمة لعملنا . الى ان حصلنا على ترخيص (كوتا) من دوائر التموين بكمية من هذا النوع من الخشب ، اسوة بالنجارين .

في الاعوام بين / ١٩٤٦ - ١٩٥٢ / تنقلت في وظائف صغيرة بين حلب وطرطوس ودرعا ودمشق ،وكانت تلك الفترة محرضا جديدا للعمل بسبب تبدل الطبيعة والازياء .

وشاركت في معارض متعددة كان اهمها المعرض الذي نظمته جامعة الدول العربية عام / ١٩٤٧ / في بيت مري بلبنان ،وهناك تعرفت لاول مرة على انتاج الفنانين العرب وبخاصة المصريين واللبنانيين ،كما عملت مدة طويلة في الرسم لمجلة (الجندي) ٠ واستفدت من هذا اللون الفني لانجاز عدد اللوحات الرمزية لم اقتنع بها ،وعدت لمحاولاتي في دراسة العلاقات التشكيلية انطلاقا من المرئيات في الطبيعة والانسان ،معتمدا على الحدس والتقديرات الشخصية ، الى ان اتيحت لي الفرصة ، التي طالما انتظرتها ،فرصة السفر الى روما للدراسة الجدية على ايدي اساتذة كبار في احد اعرق واقدم المعاهد الفنية. وهناك كنت اجد اجابة لتساؤلاتي وتسكيناً لحيرة طالما اقلقتني،وفهمت ان للفن طرقا متشعبة ٠ وان فنية العمل ليست في النقل او التقليد او التناهي في الاتقان ، وانما هي في ذلك النفس المبدع ،وتلك الحساسية المرهفة التي يسبغها الفنان على اثره ٠

وتعلمت ان الفن التشكيلي لغة ،كالموسيقى والعمارة والشعر لا بد من فهم قواعده وتقنياته ،ومن ثم اخضاع عناصر الصنعة هذه لتطلعاتنا واهدافنا الابداعية ،فلا تطغي الصنعة على الابداع ،ولا تتميز المهارة على الحساسية والشاعرية ٠

روما وايطاليا متحف كبير حي ،تشاهد فيه اثار القدماء منذ مطلع التاريخ من المصريين الى الاغريق والرومان ،وفنون العرب والاسلام والمسيحية ،وعمالقة عصر النهضة وما بعدها ،حتى الفنون المعاصرة ٠ وكل ذلك مصادر للثقافة والتعلم ٠

والى جانب الاثار الثابتة معارض وندوات مستمرة يعجز المرء عن متابعتها وقد تمكنت من زيارة اهم المدن الايطالية وكلها عواصم في تاريخها الفني : فلورنسا ،والبندقية وميلانو ونابولي ،وزرت باريس حيث شاهدت اثار الانطباعيين ،والاتجاهات المعاصرة عن قرب ٠ وفي مدريد تأملت اعمال فيلاسكيز والفريكو وغويا ٠ وفي الاندلس دهشت لروعة الفنون العربية وتأثيرها الباقي في الثقافة الاسبانية ٠

في هذه السنوات ما بين / ١٩٥٣ - ١٩٥٧ / ٠ ثابرت على تعلم واكتشاف التقنيات الفنية المختلفة ٠ فدرست على يد بارتولي طرق الاقتصاد والاختصار في التفاصيل اللونية وتبسيط السطوح والكتل في اللوحة وعلى يد ماكاري وجوليناني تقنيات الحفر ،وعلى يد شوتي طرق الفن الجداري ،وعلى يد ،رومانيولي وموريسكالكي طرق صنع النحت البارز والميدالية ،وعلى يد ريفوسكي تاريخ الفن والثقافة الفنية ٠

اولئك هم اساتذتي الذين عملوا على تكويني فنيا وثقافيا وايصالي الى القناعات المبدئية التي لا زالت حتى الان تنير لي الطريق ٠

عدت عام / ١٩٥٧ / الى الوطن ،وعينت للتدريس في مدينة درعا ،مكثت فيها اربع سنوات ،وكانت تلك الفترة تجربة غنية نتيجة للصدمة الناتجة عن الانتقال المفاجئ من محيط يتمتع باوسع معطيات الحضارة الاوروبية الحديثة ، مع ما يرافقها من مشاكل وتعقيدات

الى محيط يتسم ببساطة العيش وصدق العلاقات الانسانية ،وكان اجمل ما حرك حساسيتي ذلك التعاطف الاجتماعي لدى الريفيين فالجميع رجالا ونساء يلقون التحية لدى مرورهم بجانبك ،مما لا يحدث في المدن ،وذلك النبل في زي المرأة والاناقة المتزنة في مشيتها وحديثهـــــا ٠

في هذا المحيط الريفي الاصيل استوحيت في اعمالي حياة الفلاحين ،بنهج اعتمد التنظيم الهندسي والالوان المسطحة ،والغاء المنظور الخطي والجوي ،بهدف ايجاد حلول لمشكلة الفراغ بلغة معاصرة ٠ منها لوحتان كبيرتان بعنوان الفلاح والقدر ولوحة الامهات ولوحة اطفال النكبة ولوحة الشكالى وبعض لوحات المناظر ،وفي الفترة ذاتها انجزت عددا من الميداليات مستوحاه من هذه المضامين ٠

وقد قادتني هذه التجربة الى الميل لتجريد الاشكال المرئية تدريجيا الى ان استغنيت كلية عن مظاهر الواقع ، واستبدلتها باشكال الكتابة والحروف العربية استمد منها تكوينات تنتظم في حيّز هندسي مدروس ،وهمي فيها ليس تجويد الخط العربي بالمعنى التقليدي وانما استخدام الحروف على انها شخصيات تتحاور في أجزاء اللوحة بغية الوصول الى تعبير تشكيلي معيّن قوامه النظام ،والحركة ،والسكون ،والانسجام اللوني ٠

وغالبا ما استفيد من الحروف المجردة التي تسهل بها سورفي القران الكريم : الم ،طسم ،لكي لا يسيطر على اللوحة مضمون ادبي يشغل الناظر عن التشكيل ذاته ٠

وفي عام / ١٩٦١ / نقلت للتدريس في كلية الفنون الجميلة بدمشق ،وكانت في مرحلة تاسيسها ،وفيها تمكنت من الاحتكاك بعدد من الاساتذة والخبراء العرب والاجانب من فنانين ومعمارين الذين ساهموا بالتدريس فيها ،مما اوجد مناخا نشيطا من التفاعل الثقافي وتبادل الافكار كان له اثر طيب وفائدة لا تنكر ٠

وقد عملت كثيرا في هذه السنوات لتحسين منهج عملي ان كان في التصوير او الحفر او الميدالية او التصميم لنصب تذكارية ولبعض الاوسمة ،الى ان فزت بمنحة اليونسكو عام / ١٩٦٧ / وذهبت في جولة اطلاعية مدتها ستة اشهر بين ايطاليا وفرنسا واسبانيا ٠

كانت تلك الرحلة بمثابة كشف عما يجري في تلك الفترة في مجال الفكر الفني من اتجاهات متضاربة لها جذورها ومحاربوها والتي لا زالت تتوسع وتتنوع حتى اليوم ٠

فهناك البحث الذي تقوم به فئة من الفنانين للوصول الى معادل موازٍ لتطور العلم ، بحث يقوم على جماليات جديدة لاهداف جديدة ٠

وابحاث تريد ان يتجه الفن نحو تعبير اقل ثقافة واقرب لتفهم الجماهير ٠ فن يمكنه ان يدخل بسهولة في حياة الناس بهدف تعميمه واشتراكيته ٠

هذه المحاولات تظهر على اوجه متعددة ،ولكنها تبقى في طور البحث ،ويريد اصحابها ان يصفوها بانها تهيئة لفن الغـــد ٠

لقد تبدلت لديهم مفاهيم في التصوير والنحت اساسيا فهنالك من يعتقد انه لـم

تعد مهمة الفنان انتاج لوحات وتماثيل لذا نجد ان عددا كبيرا من الفنانين الشباب اخذوا يتجهون لعمل اشياء او الات او اعمال بالجملة ،بعد ان تخلوا نهائيا عن السطح التقليدي المغلق للوحة ٠

ولم تتح بعد الفرصة لهذه الاجتهادات لكي تاخذ مكانها التاريخي ،كما انه لم يتوفر لها التقييم النقدي الكافي ،الا ان الجدل حولها مستمر وتقوم جماعات من النقاد بدعم هذه الاتجاهات ٠

وهكذا نجد ،تجاه هذه المحاولات الجديدة ، ان فنانين كانوا قبل عقدين من الزمن يتبوؤن مكانة الطليعة اعتبروا في هذه الفترة من التقليديين واتخذوا موقف الحذر مما يجري حولهـــــم ٠

في حديث مع الفنان الفرد يانيسيية قال لي : ان اغلب التجارب التي يقوم بها الشباب تبحث عن الجديد ،وهم يغيرون وجهتهم كل عامين او ثلاثة بينما كانت الثورات الفنية في السابق تتخذ منهجا يمكن تشبيهه بالتطور النباتي نوع من الحَبّ ينمو ببطء ويزهر لكي يعطي في النهاية ثماره ٠ اما الان فالبحث هدفه الصدمة، الا ان ما نيسييه نفسه يضيف بان بعض الشباب ربما كانوا يعملون لحضارة جديدة ليست حضارته ٠

ذلك كان تقريبا رأي العديد من الفنانين والنقاد الذين قابلتهم في ايطاليا وفرنسا واسبانيا امثال سانتومازو وهارتونغ وبونينتي وسوفور وفرانك إلفار وغيرهم ٠

والملاحظ ان ما يسير الاتجاهات الفنية في الغرب الى جانب الدوافع الابداعية عوامل اخرى منها السياسية ومنها التجارية ،فالالتزام السياسي توضح في الستينات اكثر ما توضح في اعادة الاعتبار لدى الكثير من الشباب الى الواقعية او ما دعي بالواقعية الجديدة ، التي اتخذت منطلقا من الواقعية (الاشتراكية ك السوفيتية) من جهة و(البوب ارت) الواقعية (الرأسمالية الاميركية) من جهة اخرى،حسب انتماء الفنانين

وقد تنوعت اساليب هؤلاء الشباب ،بقدر ما تنوعت وسائلهم التعبيرية والتقنية ٠

اما الجانب التجاري فله دوره في تسيير عمل الفنان ،وذلك عن طريق العقود التي تبرمها صالات العرض مع الفنانين ،ويكون لها في بعض الاحيان اثر استثماري بغيض على الشباب ٠ وقد درج اصحاب الصالات على تسمية مجموعة الفنانين الذين يتعاقدون معهم على حصر انتاجهم لمدة سنوات)على تسمية المجموعة (بالاسطبل) ٠ وفي ذلك معنى كامل للاستغلال الذي يصل الى حد التعهر الادبي ٠

شباب الفنانين في الغرب كما نرى يعيشون في جو من الحيرة والقلق ويعملون في مناخ مضطرب اضطراب الحياة هناك ٠ وعن هذا التعلق والاضطراب نشأت تيارات عديدة منها ،(البوب ارت) الفن الشعبي ،والواقعية الجديدة و(الاوب ارت) الفن البصري ، (والميك ارت) الفن الميكانيكي) والتعبير السمعي البصري)والفن اللعب ،والتجميع الحركي ،والفن المبرمج الخ ٠٠٠٠ الخ ٠٠٠٠ وفي كل يوم تسمية جديدة ٠

وهكذا فان هذه الاتجاهات الحديثة تريد السير بموازاة العلم الحديث ومهاراته . تريد تبني اكتشافات هذه الحضارة التكنولوجية ،وتذهب بتجاربها الى حدود (العلم الخيالي) لذا فان المرء يتساءل عما اذا كانت انجازات هذا الفن الجديد لا تقوم على حساب الشاعرية التي عرف بها الفن في كل العصور .

وقد نطلع بعد هذا العرض بنتيجة ان على كل فنان ان يحدد مسؤوليته الخاصة وان لا يقبل بالمسؤولية التي يريدها له الاخرون كما يقول الناقد الانجليزي(كينت تينان) .

ذلك ملخص ما اكتسبته من منحة اليونسكو الاوروبية عام / ١٩٦٧ / وعدت اتابع عملي واحاول التعمق في تجربتي بعد ان ازددت قناعة بان الفنان لا يكون صادقا الا بقدر ما يستنبط اشكاله والوانه ومعانيه من عالمه الداخلي الذي تكون نتيجة لثقافته واطلاعه ومعاناته على مدى الايام .

وقد وجدت في تجريد الاشكال وفي الرؤية الهندسية استجابة لمعاني النظام والدقة والتصعيد التي تتصف بها فنوننا العربية القديمة ،خصوصا بعد زيارتي للاندلس ورؤية وتأملي للآثار الرائعة التي مازالت تشهد على عمق ذلك الفكر المبدع وشاعريته ودقة قواعده وقوانينه .

وكما كنت سابقا اعمل في عدة مجالات فنية فانني تابعت اهتماماتي في التصوير والحفر والميدالية الى جانب اعمال التصميم فوضعت نماذج لوسام بطل الجمهورية ووسام النصر ووسام بطل الانتاج وقمت بدراسات لاقامة النصب التذكارية منها نصب لسد الفرات واخر لشهداء الحرب قرب مدينة الكسوة ،ونصب للشهداء في مدينة دمشق،ونصب تزييني لمعرض دمشق الدولي،واخيرا نصب الجندي المجهول . نفذ بعضها وبقي البعض بدون تنفيذ . ووضعت تصاميم لشعارات مميزة لعدد من المؤسسات والمنظمات منها شعار منظمة الطلائع ، وشعار الصندوق العربي للتعاون الاقتصادي والاجتماعي،وشعار جامعة دمشق وشعار لمنتجات مركز البحوث العلمية وشعار قوى الامن الداخلي وغيرها .

ان هذا التنوع في اعمالي فرضه ميلي الطبيعي لتجربة مختلف الطرق التعبيرية ومحاولة فهم مشاكلها وامكاناتها وفي الوقت ذاته امتحان وشحذ لقدراتي وتنشيط لهمتي ،وبطبيعة الحال فانني اجد في كل عمل جديد اقوم به درس ينبهني الى نجاحي او فشلي.وقد يكون من دواعي راحتي واستمراري في البحث انه لا زالت لدي الرغبة في التعلم والسعي لما هو افضل نوعية واكثر اتقانا .

دمشق تموز / ١٩٨٤ /

محمود حماد